النقد الثقافي: مفاهيم وأبعاد
نحو نظرية جديدة في النقد

الدكتور: عبد الباسط سلامه هيكل
كلية اللّغة العربية
جامعة الأزهر - القاهرة-

ملخص:

يقوم البحث بدراسة الإطار الذى تحرك فيه مفهوم النقد الثقافي بداية وتطورا، ومدى تنوع تلك المفاهيم بين النقاد الثقافيين، وتلوُّنها بألوان مختلفة بداية بـ"ليتش" رائد المدرسة الأمريكية في هذا الميدان.. فهو أول من أطلق مصطلح النقد الثقافي على نظرية ما بعد الحداثة، واهتم بدراسة الخطاب في ضوء التاريخ والسوسيولوجيا والسياسة والمؤسساتية ومناهج النقد الأدبي. معتمدا على منهجية جديدة في التعامل مع النصوص والخطابات ليس من الوجهة الجمالية ذات البعد المؤسساتي، بل من خلال رؤية ثقافية تستكشف ما هو غير مؤسساتي وما هو غير جمالي.

ويتوقف البحث عند مفهوم النقد الثقافي عند أهم النقاد والباحثين العرب الذين كتبوا في النقد الثقافي من أمثال: عبد الله محمد الغذامي الذي تناول مفهوم النقد الثقافي في مجموعة من كتبه النظرية والتطبيقية، كما يتناول البحث ما كتبه محسن جاسم الموسوي تحت عنوان "النظرية والنقد الثقافي" بوصفه مجموعة من المناهج والمقاربات المتعددة الاختصاصات التي تصب كلها في الحقل الثقافي، وخدمة الأنساق المضمرة اللاعقلية والأنظمة الإيديولوجية.بعيدا عن الخطاب النقدي الرفيع الذى اعتادنا عليه في مجتمعاتنا، ويوضح البحث العلاقة القائمة بين النقد الثقافي والنقد الأدبي التقاء وتضادا، والعلاقة بين الثقافة بمفهومها الطبقي الخاص والثقافة بمفهومها الشعبوي العام، وكيف أن موضوع الدرس النقدي الثقافي موضوعا شعبويا لا يعرف الطبقية الفكري، فهو بمثابة ثورة ضد الطبقية الفكرية الشائعة في ثقافتنا وأدبنا. ويكشف البحث عن جوهر نقدية الخطاب في النقد الثقافي وكيف تجاوز جماليات وبلاغيات النص ليتعرف على النسق العام الذي تدخل في هذا النص والخلفيات الحضارية والفكرية التي أنتجته.

المنارة للاستشارات

مقدمة

الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم على أفصح من نطق بلسان عربي مبين وبعد،

كان النقد الأدبي إلى عهد قريب ينظر إليه في إطار النظريات والمناهج التقليدية إلا أنه تنامى حديثا عدد من النظريات النقدية الجديدة، بات من الضروري التعرف عليها ومحاولة توظيفها في ميدان البحث النقدي، ومن أبرزها النقد الثقافي الذي ألهى صخب الجدل الدائر حوله الكثير في جامعاتنا عن محاولة التعرف عليه بالقراءة والبحث والدرس.

وقد كان للملتقى الدولي السادس للخطاب النقدي المعاصر المزمع إقامته بكلية الآداب واللغات **جامعة الشهيد عباس لغرور– خنشلة/الجزائر** حول النقد الثقافي دافعا لي إلى إعداد تلك الورقة البحثية تحت عنوان "النقد الثقافي مفاهيم وأبعاد نحو نظرية جديدة في النقد" والبحث ليس دراسة تطبيقية، بل قراءة نظرية كخطوة أولية نحو هضم النظرية والتعرف عليها، فتوقف البحث عند مفهوم "النقد الثقافي" في حقل الدراسات الثقافية العربية، كأداة جديدة ساهمت في إغناء الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة، مع الإطلالة على أصول هذا "النمط الجديد"، وعلى ينبوعه الأول، وعلاقة العقل العربي بالنقد الثقافي قبولا ورفضا وإقداما وإحجاما، وأوضح البحث العلاقة القائمة بين النقد الثقافي والنقد الأدبي، وكشف عن مصطلحات النقد الثقافي وأدواته.

العقل العربي والنقد الثقافي

توقف العقل العربي أمام النقد الثقافي بين قابل ورافض، ومقدم ومحجم، ولم ينج من اتهامات وشبهات شأن كل جديد وافد، ويمكننا أن نجمل أبرز أسباب تلك المواجهة الفكرية في أمرين:

الأول: اعتماد القديم نموذجا يحتذى، ونمطا يتعين تقديمه دائمًا على كل مستحدث، كأثرٍ من آثار تعاظم الذات العربية على نحو يسحق كل جديد ناشئ ويُعلى من كل قديم تراثي، فنظل في حالة التماس لجذور كل جديد في تراثنا كمسوغ لقبوله، وفي حالة هجوم ومعارك دائمة نخفي خلفها الكثير من قصورنا عن مدارسة ذلك الوافد والتعرف عليه ثم صياغة موقف منه سواء أكان هذا الموقف هو إعادة إنتاجه في ثوب عربي، أو رفضه مشفوعا بخطاب بحثي دقيق يكشف الخلل، ويبرز الفوارق ويحدد الموانع.

المنارة للاستشارات

وقد دأب النقد الأدبي عند الأوائل على الاستحسان الجمالي للفظ أو المعني، ووصف الأقدم بالأفحل، فمنهم مَن استحسن اللفظ كالجاحظ في قوله: "الألفاظ مدار البلاغة والإجادة؛ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، فالمعاني في الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عملت لإفهام المعاني فقط؛ لأن الرديء من اللفظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام."[1] كما أن "المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي، والعربي، والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفى صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صياغة، وضرب من التصوير."[2] ومن النقاد من استحسن المعنى كابن قتيبة في جعله الشعر أربعة أضرب، مرجحًا فيها جانب المعنى على اللفظ.. [3] فالنقد القديم توقف عند حدود الاستحسان الجمالي والنظرة الجزئية لم يتجاوزهما هكذا كان النموذج النقدي العربي القديم.

واستحسان النقادِ القديمَ ليس لشيء إلا لقدمه وجماليات لفظه أو معناه كان نتاج فترة زمنية وتاريخية خاصة أساء المتأخرون في تعميم حكمها، إذا أن القدامى لما كان السبق إلى المعنى وطرافة وجدة الصورة وصقل اللفظ هو مدار الاستحسان عندهم كان من الطبيعي تقديم الأول على المتأخر؛ لأن الأقدم هو الأسبق إلى تحقيق تلك الغاية الجمالية، فأوليته زمنا أعطته فضل السبق للفظ أو المعنى؛ وأتى قول ابن رشيق فى العمدة "ما ترك الأول للآخر شيئا." [4] في هذا السياق.

الثاني: الخصومة المسبقة مع النقد الثقافي لكونه ربيب الثقافة الغربية المرتبطة في وعينا الجمعي بالمستعمر الهادم للهوية العربية، والمتمردة على ثوابت القيم الدينية، فالثقافة الغربية في عمومها —من منظور العقل العربي الرافض– بوابة الفساد والإلحاد والانحراف والتحرر.

وهنا يفرض سؤال نفسه على القارئ مفاده: هل دراسة النقد الثقافي تفيد قبولا مطلقا بالثقافة الغربية؟ وهل ثقافة الآخر شر محض يجب القطيعة معها؟؟ وهل يمكن تحقيق تلك القطيعة؟

يكاد يجمع الدارسون والمنشغلون بالنقد الثقافي على أنه درس جزئي لإحدى النظريات النقدية الغربية وليس تنظيرا مطلقا لجدلية فكرية عميقة في علاقتنا بالآخر.. فالإطلاق والتعميم لا مكان له في الدراسات الإنسانية، كما أن النقد الثقافي ليس بديلا للثقافة العربية أو النقد الأدبي، وطرح النظرية ومحاولات تطبيقها ليس معناه مصادمة أو مفاضلة مع نصوص الإسلام باعتباره منهجا ربانيا، فالثقافة العربية أفرزتها العقلية العربية بوسيلتين: الأولي تراكم اجتهادات في فهم النصوص المقدسة وهي في تلك الصورة لا تعدو أن تكون فهما واجتهادا بشريا. وثانيها: التلاقح الثقافي بين

المنارة للاستشارات

العقل العربي وغير العربي الذي وُجد منذ البيئة العربية الأولى، وعزّزه الإسلام بانسيابه في الدنيا، فحمل كل غير عربي قادم إلى الإسلام أجزاء من ثقافته وعلمه وفلسفته إلى الثقافة العربية. ولم يقف الأمر عند حدود النقل الأحادي العشوائي بل تعداه إلى حركة نقل جماعي منظم عن الحضارات السابقة، ولم ير جيل صانعي الحضارة الإسلامية في مهدها الأول عيبا في ترجمة نتاج اليونان والهند والفرس وغيرهم من الأمم السابقة، ولم يقل أحد بمثل ما يروجه البعض حديثا من ضرورة القطيعة المطلقة مع الآخر، متجاهلا بهذا الطرح حقيقة مفادها: أن الانعزال الفكري والثقافي موت للفكرة وإيذان برحيلها، فلا يوجد خطاب إنساني يمكنه الحياة منعزلا.

نخلص من ذلك إلى أنه ليس هناك مصادمة حقيقية بل هناك مصادمة مصطنعة أوجدها المثقف العربي حين وهب فهمه للنص سلطة مقدسة وتوقف عندها، رافضا الالتفات إلى الحراك الفكري والثقافي المحيط به.

رواد النقد الثقافي

نشأ النقد الثقافي شأن ألوان النقد الحديثة في الغرب ولقي رواجا وإقبالا في تسعينات القرن الماضي في أمريكا وفرنسا، حيث التقت الدراسات التاريخية والفلسفية الاجتماعية والاقتصادية، ومن أبرز رواد المنهج الثقافي الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو، فكتابه (تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي) من بواكير الدراسات المعتمدة على المنهج الثقافي في تحليل الظاهرة، وكذلك كتابه(الكلمات والأشياء) الذي صدر أواخر الستينات كبحث حفري في العلوم الإنسانية،وبين رواد النقد الثقافي يأتي(فانسان ليتش) رائد المدرسة الأمريكية في مقدمة المنظرين للنقد الثقافي، فهو أول من أطلق مصطلح النقد الثقافي على نظرية ما بعد الحداثة، واهتم بدراسة الخطاب في ضوء التاريخ والسوسيولوجيا والسياسة والمؤسساتية ومناهج النقد الأدبي. معتمدا على منهجية جديدة في التعامل مع النصوص والخطابات ليس من الوجهة الجمالية ذات البعد المؤسساتي، بل من خلال رؤية ثقافية تستكشف ما هو غير مؤسساتي وما هو غير جمالي.

ومن مؤسسي الدراسات الثقافية المعاصرة في جامعة بيرمينجهام "ريتشارد هوجارت" بكتابه "فوائد القراءة والكتابة"، و"ريموند ويليامز" في كتابيه: "الثقافة والمجتمع"، و"الثورة طويلة الأجل"، إذ قدّم الثقافة كوحدة كلية لا تقبل التجزئة، وتتبع مراحل تطور الثقافة، ودرس الظواهر الثقافية والطباع العامة لبعض المجتمعات، فجمع في كتاباته بين التنظير والتطبيق، وجاء عالم الاجتماع والناقد

المنارة للاستشارات

الأدبي (ستيوارت هول) فنقل الكثير من الأفكار الماركسية إلى حقل الدراسات الثقافية، ومن رواد الدراسات الثقافية الفرنسية (بيير بورديو)، وعالم النفس والناقد الثقافي (أشيش كاندي)الأب الروحي للدراسات الثقافية في جنوب شرق آسيا.

وتتجلى في أسماء هؤلاء الرواد وحقول دراساتهم حقيقة هامة في النقد الثقافي، وهي أنه لا يعرف فواصل بين الدراسات الإنسانية، ولا يؤمن بما يشيع في جامعاتنا حتى الآن من حقول تخصصية تعزل الدراسات الإنسانية في جزر منفصلة.

إذا انتقلنا إلى البيئة العربية الناقلة للنظرية فسنجد أن بعض الباحثين انطلق في كتاباته التطبيقية من منطلق المنهجية الثقافية دون أن يُسوق لنظرية النقد الثقافي من أمثال إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" والدكتور جابر عصفور في كتاباته حول الثقافة العربية، وكذلك الدكتور محمد عابد الجابري في تحليلاته النقدية لنظم المعرفة في ثلاثيته حول نقد العقل العربي.

حتى جاء كتاب الدكتور عبدا لله الغذامي (النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية) أول دراسة عربية تتبنى النقد الثقافي منهجا في الدراسة والتحليل على نحو صريح، معلنا بداية مرحلة جديدة في ميدان دراسات النقد الثقافي في البيئة العربية، وهذا الكتاب "ليس وليد اللحظة أو منبت الصلة بمجمل مؤلفات عبدالله الغذامي، وإنما هو جزء من مشروع طموح يهدف إلى جعل النقد الأدبي أداة فعالة في نقد الثقافة السائدة، ولم يقصد المؤلف إلغاء المنجز النقدي العربي، وإنما الهدف هو تحويل الأداة النقدية من أداة لقراءة الجمالي الخاص وتبريره واستهلاكه- بغض النظر عن عيوبه النسقية- إلى أداة لنقد الخطاب الذي يجسده النص وكشف النسق الفكري الذي يعبر عنه.. ليس بالاعتماد على الخطاب الجمالي والبلاغي، وإنما بتحليل النصوص تحليلا فكريا معاصرا يعتمد على العقلانية في تقديم رؤية النص للواقع العربي، ومن خلال الكشف عن الأنساق الثقافية التي تعبر عنها، وهذا يعني أن عبدا لله الغذامي قد طور من مهمة الناقد الأدبي ليجعل منه مفكرا اجتماعيا عن طريق ما يسميه بالناقد المدني الذي يجعل من الدراسات الأدبية مجالا لكشف الذات العربية، وتحليلا للخطابات والأنساق الثقافية المتداولة في الفكر العربي المعاصر، ومن هنا تنبع أهمية الكتاب.[5]

فقد أصّل الغذامي للفكرة نظريا ومعرفيا وممارسة. فبدأ كتابه المكون من سبعة فصول بالتأريخ لمصطلح النقد الثقافي في الفكر الغربي وأدبياته، وكيف بدأت الدراسات الثقافية ثم شرح النظرية، وعرض

المنارة للاستشارات

المنهج الخاص بها، وحدد مفاهيم مصطلحات النقد الثقافي التي اعتمدها في تحليل نظرية النقد الثقافي متوسلا إلى ذلك بالتطبيق الإجرائي خلال أربعة فصول، وليس ميدان البحث مناقشة منهجه أو التعرف على خصائص خطابه النقدي تنظيرا وتطبيقا، فهذا ما يحتاج إلى بحث مستقل لكن غاية ما قصد إليه الباحث هنا أن يثبت للغذامي ريادته لنظرية النقد الثقافي، وجرأته في كسر حاجز الصمت النقدي عن تلك النظرية، وإن وقع في تناقض جلي في علاقة النقد الثقافي بالنقد الأدبي، فبعد أن أكد في مقدمة كتابه علي مكانة النقد الأدبي، وأنه مقدمة للنقد الثقافي، وأنه يكمل ما سكت عنه النقد الأدبي في قوله: "لقد أدى النقد الأدبي دورا مهما في الوقوف على (جماليات) النصوص، وفي تدريبنا على تذوق الجمالي، وتقبل الجميل النصوصي، ولكن النقد الأدبي مع هذا وعلى الرغم من هذا أو بسببه أوقع نفسه وأوقعنا في حالة من العمى الثقافي التام عن العيوب النسقية المختبئة من تحت عباءة الجمالي.. وليس القصد هو إلغاء المنجز النقدي الأدبي، وإنما الهدف هو تحويل الأداة النقدية من أداة في قراءة الجمالي الخالص وتبريره (وتسويقه) بغض النظر عن عيوبه النسقية إلى أداة في نقد الخطاب وكشف أنساقه."[6]

ثم عاد الغذامي فتناقض مع ذلك في الكتاب نفسه حين رأى في النقد الثقافي بديلا نظريا وإجرائيا عن النقد الأدبي.[7]

وقد تبع الغذامي عدد من الدراسات من أهمها كتابات إدريس الخضراوي المجموعة في كتابه "الأدب موضوعا للدراسات الثقافية" حيث ناقش النقد في مفهومه العام، وما أنجزه النقد الأدبي، وتوقف عند إشكاليات الخطاب النقدي المعاصر، ثم تناول نماذج من النقد الثقافي عند الرواد من مؤسسي تلك المدرسة.[8] وقد توالت الدراسات التطبيقية والتنظيرية في النقد الثقافي كحقل معرفي استراتيجي رحب متشبع بمختلف العلوم الإنسانية منفتحا على آفاق نقدية واعدة من النقد الأيديولوجي، ونظرية القراءة والتأويل، والتاريخانية الجديدة، والنقد النسوي إلى غير ذلك من آفاق الدراسات النقدية الجديدة.

المنارة للاستشارات

النقد بين أدبية النص وثقافية النسق:

نشأ النقد في كنف الفلسفة بوصفها المعرفة المسيطرة على التفكير البشري في الحضارات القديمة، فكتب أفلاطون ومن بعده أرسطو في قواعد النقد مع اختلافهما في طريقة التناول.. وظلت سيطرة الفلسفة على قواعد النقد بعد أن بدأ العلم يشارك الفلسفة بل يغالبها في مكانتها ومركزها، هذا عن النقد في مدرسته الغربية، أما النقد عند العرب فلم يصدر عن الفلسفة إلا في العصر الحديث أما النقد القديم فقد بدأ بنظرات مجتزئة للنص الأدبي فيما اصطلح عليه نقد البيت أو البيتين من الشعر، وجاءت الأحكام معبرة عن الذات الناقدة أكثر من تعبيرها عن النص، ثم تشكل في الدرس النقدي العربي ما يمكن أن نسميه المدرسة الجمالية أو الفنية أكبر المدارس النقدية العربية، وأكثرها استمرارية عبر التاريخ منطلقة من النص في أحكامها.

ولم يفكر الدارس في النص الأدبي خارج حدوده النصية، فلم يتعرف على أبعاده الاجتماعية وسياقاته التاريخية وتفاعلاته مع الثقافة، فهو يقف عند النصوص البلاغية غير متجاوزا لأسوارها، باحثا عن الجماليات في كلماتها المنظومة وفق قواعد البلاغة العربية، دون أن يتجاوز الحدود اللفظية للنص، وعندما حاول قدامة بن جعفر أن يقيم النقد على أسس فلسفية ومنطقية أخفق في ذلك. ثم جاء عبد القاهر فحاول أن يُحدث حراكًا في الدرس النقدي غير أنه لم يتابعه أحد.. وظل النقد العربي القديم لا يبرح ميدان الدراسات الفنية (الجمالية) حتى كان العصر الحديث فأخذ يتنازع النقد الأدبي مدارس عدة بين محاولات لإعادة النظر في النصوص الأدبية وفق نظريات الفلسفة أو الدراسات النفسية.. ومن المدارس من رأى أن تلك المحاولات تضر بالنص وتصرف الدارس عن المظان الحقيقية التي ينبغي عليها أن يتفقدها داخل النص، فالنقد الأدبي من منظورهم يقوم على الدراسة الفنية للنص فقط، وليس على أساس من الفلسفة أو الدراسات النفسية.[9] فالنقد الأدبي يركز على جوانب التصوير الفني في النص غير مكترث بالحقائق الدينية أو السياسية أو التاريخية التي زامنت النص إلا في بعض التراجم المعرفة بالكاتب، فقد تشير إلى عصره دون محاولة اكتشاف المضمر من ثقافة العصر في النص، أقصى ما تبحث عنه ذات المبدع في نصه، ونجحت المدرسة الفنية في أن يكون لها الغلبة في ساحة الدرس النقدي، فهي تمثل المدرسة النقدية الرسمية لأقسام الدراسات النقدية في جامعاتنا المصرية، وليس أدل على ذلك من ببليوجرافيا الرسائل العلمية في الجامعات المصرية منذ إنشائها حتى نهاية القرن العشرين إذ تشير إلي سيطرة الدراسات الفنية على

المنارة للاستشارات

النقد الأدبي في الرسائل العلمية الصادرة عن جامعاتنا المصرية.[10] ويمكننا إجمال أهم أسباب سيطرة المنهج الفني على دراساتنا النقدية في الآتي:

أولا: أن الأدب العربي عاش عقودا من الزمن يفضل الشعر على النثر، ولا يعرف من الشعر إلا الشعر الغنائي المغرق في الذاتية، المرتبط بالجماليات اللفظية، فالشاعر يُطرب المتلقي على قدر جماليات نصوصه خيالا ومجازا وصنعة لفظية.

ثانيا: أن البيئة الأولى للأدب العربي والدرس النقدي كانت بعيدة كل البعد عن الفلسفة والجدل العقلي، ومرتبطة بالبديهة، فترى الدنيا في حالة من الوضوح الذى لا يحتاج إلى تأويل، فرأت العالم في صورة متسقة مع صفاء بيئتها الصحروية الممتدة التي لا تحمل أي دلالات مضمرة أو مبهمة.

ثالثا: أن النقد الأدبي نشأ في أحضان البلاغيين الذين انشغلوا بالمجاز في أنواعه وصوره الجزئية عن البحث في المجاز الكلي أو المعاني المضمرة في النص.

وإذا انتقلنا إلى مصطلح "النقد الثقافي" فسنجده قد اكتسب معنى جديدا بالتقاء اللفظين، فنحن لا نتحدث عن النقد والثقافة كدلالتين منفصلتين بل نتناول نظرية ومنهجا ينتقل بالعقل العربي من نقد النصوص إلى نقد الأنساق.

وإذا نظرنا في دلالة النقد والثقافة على نحو منفصل فسنجد النقد في دلالته اللغوية من قولهم: "نقد الشيء نقدا نقره ليختبره، أو ليميز جيده من رديئه، يقال: نقد الطائر الفخ ونقدت رأسه بإصبعي ونقد الدراهم والدنانير وغيرها نقدا وتنقادا، ميز جيدها من رديئها، ويقال النقد النثر ونقد الشعر أظهر ما فيه من عيب أو حسن."[11]

والثقافة ليس المراد بها –المعنى العامي الشائع– العلم في مقابل الجهل، والمثقف هو المتعلم، في مقابل الجاهل، فهذه دلالة من الناحية العلمية غير صحيحة، فالثقافي —علميا ومنهجيا– في مقابل الطبيعي، وإن كان البعض لا يفرق بين المعنى العامي والأكاديمي في التعرف على الثقافة، مع إقرار الجميع بأن النبي —صلى الله عليه وسلم– رغم أميته وعدم قراءته وكتابته إلا إنه لم يكن جاهلا بل كان مثقفا واعيا من صفوة مثقفي عصره، فالثقافة —في دلالتها الأكاديمية–هي تحول الكائن من مجرد الوجود الطبيعي إلى الوعي بهذا الوجود، وهو وعي يفصل الإنسان عن الموجودات الطبيعية، ويسمح له بالسيطرة عليها، فيمكننا القول الإنسان حيوان ثقافي أي واعي، تمييزا له عن الموجود الطبيعي (الحيواني) غير الواعي.

المنارة للاستشارات

وتقوم الثقافة على تعددية نسقية تبعا لتفاوت مستويات الوعي من مرحلة إلى مرحلة أخرى زمانيا، وتفاوتها بين جماعة وجماعة أخرى، بل قد تتفاوت في المجموعة البشرية الواحدة بما يخلق حالة من التعدد الثقافي في بنية الثقافة الخاصة بمجتمع بشري معين.

وينعكس هذا التعدد على اللغة التي تتعدد مستوياتها الدلالية تعددا ثقافيا، فاللغة لا تحيل إلى الواقع الخارجي الموضوعي إحالة مباشرة، ولكنها تحيل إلى التصورات والمفاهيم الذهنية القارة في وعي الجماعة –وفي لا وعيها– فمعنى ذلك أن اللغة لا تنفصل بحال في دلالتها عن الثقافي الذي تمثل اللغة إحدى تجلياته كما يتجلى في الأعراف والتقاليد وأنماط السلوك والاحتفالات الشعائرية والدينية والفنون.

فالثقافة هي تصور العالم لدى مجموعة بشرية بعينها –مع التسليم بتفاوت مستويات هذا التصور– متخذة من اللغة وسيلة للتعبير عن هذا التصور، فتتعدد مستويات اللغة بتعدد مستويات الثقافة التي تعبر عنها، ولأن العالم –في وجوده الموضوعي المستقل عن الوعي– لا ينعكس في التصورات والمفاهيم الثقافية انعكاسا آليا، وذلك لأن للعالم قوانين من حيث وجوده المستقل تختلف عن قوانين تشكّل المفاهيم والتصورات في الوعي، فليس من المنطقي القول بأن اللغة تعكس التصورات والمفاهيم عكسا آليا، وذلك لأن للغة قوانينها التي تختلف عن قوانين تشكل المفاهيم والتصورات في الوعي[12]، ومعنى ذلك أننا أمام حقائق ثلاث متداخلة ومتواجلة هي اللغة والثقافة والعالم يحاول النقد الثقافي الكشف عن طبيعة العلاقة التي تربط بينهما، وكيف أن أي تصور لأحدهم دون الآخر هو قراءة منقوصة للنص.

والنقد الثقافي ليس في خصومة مع النقد الأدبي، وليس بديلا له، بل يضع النقد الثقافي الأدب في مكانه الصحيح بوصفه فنا جامعا للفنون والدراسات، فلا يعزل النقد الثقافي النص الأدبي عن قائله ومحيطه الاجتماعي، ولا سياقه التاريخي بل يستعين بهم في التعرف على النص، فيتكئ النقد الثقافي على الدراسات الإنسانية بما فيها الدراسات الفلسفية والتاريخية والنفسية في درسه النقدي فلا يقتصر على الدراسات الجمالية (الفنية)، ولا يهمشها، فالنقد الثقافي يبحث عن الأنساق المضمرة في النصوص ومن خلال الوقوف أمامها، واستنطاقها بالمعاني الكلية يكون تذوق النص وفق قيم النقد الثقافية، وليس وفق القيم الجمالية فحسب، وهذا من شأنه أن يقدم نظرات أكثر عمقا، ونتائج أكثر جدة متجاوزا السطح الجمالي الظاهر للنص، فالنقد الثقافي تطور لنظريات النقد الأدبي،

المنارة للاستشارات

وليس نقضا له، يتفقان ويختلفان على نحو ما ستبين الدراسة لكن ليس النقد الثقافي إلغاء بالكلية للنقد الأدبي، فيرى (فنسنت ليتش) – أهم منظري النقد الثقافي- أن بين النقد الأدبي والثقافي قواسم مشتركة مع احتفاظ كل منهما بخصوصيته وإضافته للدرس النقدي، ويرى الغذّامي أن النقد الثقافي والأدبي لا غنى عنهما في الدرس الثقافي والأدبي غير أنه يعدّ النقد الثقافي أولى بالدراسة فيقول في إحدى مقابلاته: "إنني أحس أننا بحاجة إلى النقد الثقافي أكثر من النقد الأدبي ...لأن فعالية النقد الأدبي جربت وصار لها حضور في مشهدنا الثقافي والأدبي وقد توصلنا إلى أن الكثير من أدوات النقد الأدبي صالحة للعمل في مجال النقد الثقافي بل أستطيع أن أؤكد بأننا ومنذ عصر النهضة العربية وحتى يومنا الراهن ما من شيء جرب واختبر ثقافياً مثل النقد الأدبي، ولهذا أدعو إلى العمل على فعالية النقد الثقافي انطلاقاً من النقد الأدبي وعبر أدواته التي حازت على ثقتنا بعدما أخضعناها للمعايير المعروفة عالمياً، ولا شك بأنه بات للنقد الأدبي في بلادنا العربية من الحضور والسمعة ما يؤكد على أهميته في حياتنا الثقافية والأدبية، وأن المشكلات أو الملاحظات التي تسجل على النقد الأدبي لا تتوجه نحو الأدوات أو الضرورات، وإنما تتوجه إلى الغايات والمقاصد وطرائق العمل في مجالات النقد والتي تؤدي أحياناً أو أغلب الأحيان إلى ما نسميه بالتحيز والمحاباة أو الاقتصار على أمر من الأمور كالجانب التنظيري وحسب."[13]

وقد تمايز النقد الثقافي عن النقد الأدبي بغياب الحالة الانتقائية، فالنقد الثقافي –في نظرته- أكثر رحابة من النقد الأدبي إذ يخرج الناقد من الحالة الانتقائية للنصوص إلى مطلق النصوص، فيدمج نتاج النخبة من الأدباء بالنتاج الشعبي العام، فهو يدرس كل خطاب دون انتقاء أو مفاضلة سواء أكان شعراً أو كلاماً شعبياً أو غير ذلك فيقوم بتحليله لكشف أنظمته العقلية وغير العقليّة بتعقيداتها وتعارضاتها.

ومن أوجه التمايز –أيضا- تجاوز النص إلى محيط النص، فالنقد الثقافي يتجاوز الكلمات؛ ليغوص في الأنساق المضمرة وراءها، وما يحيط بها من قريب أو بعيد، بينما يهتم النقد النصي بالكلمات بمعنى أنه ينظر للجماليات البلاغية من تقديم وتأخير وأساليب خبرية وإنشائية وصور فنية وتعبيرات مجازية ومحسنات لفظية ومحسنات معنوية فلا يتعدّى النص.

فالنقد الثقافي يهتم بكل ما يحيط بالنص من أفكار ومعاني ونصوص مهمشة غير بلاغية، وإن لم يتوفر فيها القيم الجمالية الشائعة في النصوص الأدبية، فهو يجمع كل أشكال الخطاب بغض

المنارة للاستشارات

النظر عن كون الخطاب يحظى بقدرات بلاغية أم لا.. فالنص النقدي من منظور النقد الثقافي خطاب ثقافيّ، وليس خطابا جماليّا؛ لذا ينظر إلى الكلمات على أنها حاملة لدلالات نفسية اجتماعية مضمرة في حاجة إلى علم النفس والاجتماع والدرس التاريخي للتعرف على ما تحمله من دلالات.

"فالنقد الثقافي هو الذي يدرس النص لا من الناحية الجمالية بل من حيث علاقته بالإيديولوجيات والمؤثرات التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ويقوم بالكشف عنها وتحليلها بعد عملية التشريح النصّية، هو النقد الذي يستكشف الجماليات الثقافية في الخطاب بعيداً عن حدود الدراسات النصّية التي تستكشف جماليات الكلمة داخل إطار النص المغلق. هو النقد الذي يدرس الأنساق الثقافية في الخطاب باعتباره لا يصدر عن فراغ بل هو متفاعل مع بيئته وتاريخه وثقافته بمعناها الأعم."(14)

المصطلح في النقد الثقافي

لا يمكننا الحكم على الشيء إلا إذا تعمّقنا في التعرف عليه؛ ومن أوجه التعرف على النقد الثقافي أن نقف على عالمه الاصطلاحي وأدواته في الخطاب، تلك التي تميزه عن النقد الأدبي وغيره من الخطابات النقدية، وتساعد القارئ على تصوره، ونجملها في النسق الثقافي، الجملة الثقافية، المجاز الكلي، التورية الثقافية، المؤلف المزدوج.

النسق الثقافي

لا يراد بالنسق دلالته اللغوية بمعنى (نظام واحد) ولا دلالة (البنية) حسب مصطلح دي سوسير، بل تحمل دلالة جديدة في النقد الثقافي كنوع من أنواع الخطاب تضاف إلى الخطاب الصريح والضمني، فالنقد الثقافي ينبني على نظرية الأنساق المضمرة، وهي أنساق ثقافية وتاريخية تتكون عبر البيئة الثقافية والحضارية، وتتقن الاختفاء تحت عباءة النصوص، فالنسق مصطلح شديد الارتباط بالنقد الثقافي، فالمفترق الجذري بين النقد الأدبي والنقد الثقافي هو سؤال النسق بديلاً عن سؤال

المنارة للاستشارات

النص، وتصبح النصوص تبعا لذلك ليست إلا حوامل تحمل هذه الأنساق، ويطلق عليه –أيضا– النسق المضمر في النص، وهو نقيض النسق الدالّ والبلاغي الذي هو تكوين دلالي إبداعي من معطيات النص جلي في وعي الباحث والمبدع، على خلاف النسق الثقافي المختبئ جيداً وراء جماليات النص، وكلما ازداد النص شهرة وذيوعا كان ذلك دليلا على ثراء في أنساقه الثقافية المضمرة، فجماهيرية النص دليلاً على توافق مبطن بين المغروس النسقي الذهني في دواخلنا والنص، فالنقد الثقافي يقرأ النص ليس لذاته، وإنما لكشف حيل الثقافة في تمرير أنساقها، وهذه نقله نوعية في مهمة العملية النقدية. والوصول إليه يحتاج إلى تجاوز أداة الناقد الأدبي إلى أداوت الناقد الثقافي بغية الوصول إلى العلامة الثقافية.

وقد أضاف الغذامي مصطلح النسق إلى العناصر الستة للنموذج اللغوي:–المرسل: حيث تكون وظيفة الخطاب (ذاتية/وجدانية).–المرسل إليه: حيث تكون وظيفة الخطاب (إخبارية/نفعية) – الرسالة: حيث تكون وظيفة الخطاب (جمالية/شاعرية). – السياق: حيث تكون وظيفة الخطاب (مرجعية). –الشفرة: حيث تكون وظيفة الخطاب (معجمية). – أداة الاتصال: حيث تكون وظيفة الخطاب(تنبيهية).– النسق: حيث تكون وظيفة الخطاب نسقية ثقافية.

ويتحدد النسق عند الغذامي تبعا لوظيفته، فهناك النسق الناقض أو النسق الناسخ الذى ينقض وينسخ النسق الظاهر الذي يبدو للمتلقي من خلف قناعات الجماليات البلاغية، ويتسم النسق بكونه إفرازا ثقافيا لخطاب يمثل حادثة ثقافية ذات طابع جماهيري راسخ في الذوق العام.[15]

الجملة الثقافية

قدم النقد الثقافي الجملة الثقافية كنوع ثالث من الجمل يضاف إلى الجملة النحوية ذات المعنى التداولي أو الدلالة الصريحة وما أسميه بالمستوى الأول لمفهوم النص، والجملة الأدبية ذات المعنى البلاغي أو الدلالة الضمنية، وما يمكن أن نسميه بالمستوى الدلالي الثاني للنص، ويراد بالجملة الثقافية هي الجملة الكاشفة للنسق والمعبرة عنه كمستوى دلالي ثالث للنص، قد تطول لتصبح مقطعاً شعرياً أو سردياً وقد تقصر لتكون شبه جملة.

المنارة للاستشارات

فأصبحت الدلالة وفق النقد الثقافي ثلاث دلالات: دلالة صريحة (توصيلية)، دلالة ضمنية (جمالية أدبية)، دلالة نسقية وهذه لا تكون إلا في الجملة ثقافية المتولدة عن الفعل النسقي بمعنى الثقافة الأوسع.

المجاز الكلي

أبقى النقد الثقافي على المجاز كأساس مبدئي في الفعل النصوصي غير أنه نقله من دلالته الجمالية الجزئية في الكلمة أو الجملة إلى دلالة كلية ذات قيمة ثقافية، فقد وسعت الجملة الثقافية التي طالت؛ لتضم مجموعة جمل نصية من دائرة المجاز، فلم يعد المجاز في النقد الثقافي مقصورًا على المجاز البلاغي، بل تعداه إلى المجاز الكلي، فظهرت التورية الثقافية كصورة أكثر اتساعا من التورية البلاغية.

وأصبح المجاز في النقد الثقافي صاحب مفهوم ثقافي يوسع من مجاله، ويهيئه لاستعمال نقدي أكثر وعيا بالفعل النسقي وتعقيداته، فلم يعد المجاز محدودا باللفظة والجملة بل يتسع ليشمل الأبعاد النسقية في الخطاب وفي أفعال الاستقبال، وتغيب ثنائية الحقيقة والمجاز بالمفهوم البلاغي إلى ازدواجية جديدة في الدلالة العامة للخطاب الثقافي ببعده الكلي الجمعي.

إن المجاز الكلي هو المفهوم البديل عن المجاز البلاغي، وفي المجاز الكلي تنشأ الجملة الثقافية وتنشأ الدلالة النسقية، فالجملة الثقافية المكونة للمجاز الكلي هي نوع ثالث يضاف إلى الجملتين النحوية والأدبية، والفرق بين الجملة الثقافية وغيرها يماثل – بل يفوق – الفرق بين الجملة الأدبية والجملة النحوية، وبين المعنى والدلالة، وبين الدلالة الصريحة والدلالة الضمنية، فإن النقد الثقافي يميز بين ذلك كله، وبين الجملة الثقافية ومعها الدلالة النسقية ومفهوم المجاز الكلي كتطور نظري ومفاهيمي باتجاه نقد الأنساق، لا نقد النصوص، وباتجاه التأسيس لوعي نظري ونقدي مختلف نوعيا وإجرائيا.

التورية الثقافية

استعار النقد الثقافي مصطلح التورية ونقله من علم البلاغة إلى النقد الثقافي استعارة لفظية لا دلالية، فالتورية في البلاغة تكون في لفظ له معنيان، أحدهما قريب ظاهر غير مقصود، والآخر بعيد مقصود.

المنارة للاستشارات

أما في نظرية النقد الثقافي فقد اتسعت دلالتها –كما حدث مع مفهوم المجاز –لتدل دلالة كلية لا تنحصر في معنيين قريب وبعيد مع قصد البعيد، وإنما لتدل على حالة الخطاب الكلي منطويا على معنيين أحدهما مضمر لا شعوري لا يقصد إليه المؤلف وليس في وعيه، حتى يصبح الناقد في نظرية النقد الثقافي ليس مهمته كشف المعنى البعيد المقصود كما كانت مهمة الناقد الأدبي بل يصبح مفسرا للدلالة المضمرة الغير مقصودة بداية.. ويصبح طرفي الدلالة في التورية الثقافية ليست كلمات ولا جملا بل أنساقا كلية تضم خطابات وسلوكيات أحدهما في النص والآخر مضمر خلف النص ومتسقا مع بيئة المبدع.

والسياقات التاريخية سياسية واقتصادية واجتماعية غير منفصلة عن ذات الكاتب المنفعلة بالنص، فالتورية في النقد الثقافي تضم المضمر الجمعي في صورة رمزية لم يقصدها المبدع، ولم يدركها المتلقي، فهي أقرب ما تكون إلى نظرية (يونج) الذي يرجع العملية الإبداعية إلى اللاشعور الجمعي، غير أن يونج يرى أن الإسقاط عملية نفسية مقصودة يحول بها الفنان المشاهد إلى موضوعات خارجية يتأملها الآخرون، وهو بهذا يختلف عن اللاوعي الغير مقصود في التورية الثقافية.

المؤلف المزدوج

في إطار التنظير للنقد الثقافي واستحداث ألفاظ ذات دلالات اصطلاحية جديدة ظهر مصطلح المؤلف المزدوج كأحد إفرازات النسق الثقافي، والمؤلف المزدوج يشير إلى الثقافة بما لها من سلطة مهيمنة على الناقد والمنتج للنص والمستهلك للنص، فالجميع صنائع ثقافية تتحكم فيها الأنساق وتوجه حركتها.

حديث النقد الثقافي عن المؤلف المزدوج لا يراد به المؤلف الضمني أو الفعلي بل يراد بها شخصية معنوية هي الثقافة بوصفها مؤلف نسقي قادر على جمع الدلالات النسقية المتناقضة على نحو مركزي للكشف والتعرف.(16)

المنارة للاستشارات

الإحالات:

(1) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين (43:53/1). دار الكتب العلمية، بيروت .

(2) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين (43:53/1).

(3) ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء (64/1 - 77)، ط2. القاهرة: دار الحديث، 1418هـ - 1998م.

(4) ابن رشيق القيروانى. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،(197/1)، ط3. بيروت: دار إحياء التراث1419هـ - 1999م.

(5) رمضان بسطاويسي. النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية. مقال منشور بمجلة العربي(العدد 514 - 2001/9م). تصدرها وزارة الإعلام بدولة الكويت.

(6) ينظر: -د/عبدالله الغذامي. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية.ط3. الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي. 2005م ص9.

(7) ينظر: نفسه. ص70،69.

(8) إدريس الخضراوي. الأدب موضوعا للدراسات الثقافية.ط1.الرباط: دار جذور للنشر والتوزيع. 2008م

(9) ينظر: سيد قطب. النقد الأدبي أصوله ومناهجه.ط6. ص106:109. دار الشروق. 1410هـ -1990.

(10) محمد أبو المجد على البسيوني. ببليوجرافيا الرسائل العلمية في الجامعات المصرية منذ إنشائها حتى نهاية القرن العشرين .ط1. مكتبة الآداب.1422هـ-2001م.

(11) المعجم الوسيطج2 ص944 .ط1. إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة بتحقيق إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار. القاهرة: دار الدعوة. 1997م.

(12) ينظر: نصر حامد. النص والسلطة والحقيقة. ط5. بيروت/ الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي. 2006م. ص80:84.

(13) رشيد العلوي. النقد الثقافي عند عبدالله الغذامي. دروب. 22سبتمبر2009م.

(14) سلمان الحبيب. إضاءات حول النقد الثقافي. دروب 24 يونيو 2005م.

المنارة للاستشارات

(15) ينظر: - النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية. ص61:67. وينظر: عبدالوهاب أبو هاشم مشروع النقد الثقافي إعداد الكاتب والقاص. محاضرة في ملتقى الإبداع اللقاء الخامس يوم الخميس 17أبريل 2003 م .

(16) ينظر: النقد الثقافي. ص67،77.

المنارة للاستشارات